التاريخ فى سير أبطاله

محمد شريف باشـــا

كان شريف فى عصره رجلا اجتمعت فيه الرجال
وكانت مواقفه توحى البطولة وتخلق الأبطال

للأستاذ محمود الخفيف

كان فى استقالة شريف معنى الغضب ، ولكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب وإلا لما كان له ما كان من خطر ، كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معاً أمام لجنة من الأجانب تريد أن تظهر بمظهر السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك كان ذلك الغضب ثورة ؛ وما لبثت تلك الثورة أن بعثت فى كل نفس من نفوس الأحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهيأت البلاد لأن تثبت أمام الأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل رجلها ورأس أبطالها

ورب قائل يقول وماذا كان فى ذلك الموقف من معانى البطولة ؟ هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الابتعاد عن الميدان رجولة ؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ ما وصل إليه نفوذ الأجانب يومئذ ، ومبلغ ما منى به المصريون من خور ، وما عرف عنهم من الحرص على المناصب الحكومية ، يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف من عزة وتضحية . هذا إلى ما سبق الاستقالة من تحد للجنة وسلطانها . ولو أن الخديو آزر شريف يومئذ لما ترك منصبه تاركاً اللجنة بذلك فى أحرج المواقف ممعناً فى عصيانه وترفعه ... ولكن الخديو على جلال قدره طلب إلى اللجنة فى لهجة تشبه الرجاء أن تكتفى من شريف أن يرد على أسئلتها كتابة . ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو بقول يكون فيه معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الأجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف إلا أن يتخذ من استقالته مظهراً من مظاهر الاحتجاج على تدخل الأجانب فى شؤون البلاد ، فكان ذلك المظهر أول نذر الثورة ...

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة . ولقد جعلت اللجنة هدفها بطبيعة الحال العمل الصالح للدائنين ، ولذلك فلم تأل جهداً فى أن ترجع بكل المساوىء إلى الخديو وحكومة الخديو متناسية ما فعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم تراع فى تقريرها بؤس أولئك الذين أثقلتهم الضرائب وهدهم الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيراً مايفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم ، أولئك الذين غمرهم فى سنة من تلك السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولاً عليهم من سيل الضرائب ، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ، أولئك الذين أحاط بهم المرابون والأمراض معاً وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه

وتغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئاً داخل البلاد فى ظل تلك الامتيازات المشؤومة التى كانت من أكبر المساوئ التى منيت بها مصر والتى قلّ أن يجد المؤرخ مثيلاً لها فيما كانت تتضمنه من الجور ، وما كانت تقوم عليه من الباطل والبهتان ؛ وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين تزايد عددهم فى الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتقاضون الأجور العالية جزاء على ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة ؛ بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم إلا فى مشقة وعناء وهى من القلة بحيث كانت تحفز الكثيرين إلى الاختلاس والتهاون فى العمل .

واقترحت اللجنة فى قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة إلى وزراء مسؤولين ، وأن ينزل عن أملاكه فى نظير مرتب معين ، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها ... كل ذلك دون أن تفكر اللجنة فى أن يتنازل الدائنون عن شىء من ديونهم وهى تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف تزايدت أرباحها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسؤولة فاستدعى نوبار من أوربا وعهد إليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها فى التبعة وتقوم بالحكم فى البلاد ، ونظر المصريون فإذا وزارة المالية تسند إلى رجل انجليزى ، وإذا وزارة الأشغال تسند إلى رجل فرنسى ، وهكذا سيطر الأجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها بينما كانت تسمى « وزارة مسؤولة » لم يكن لمجلس شورى النواب حق إسقاطها بل لم يكن له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو سلطان عليها ، ومع ذلك كانت

تلقب بذلك اللقب ! فليت شعري كيف كانت مسؤولة ومن كان إليه يرجع الأمر يومئذ ؟

كان الوزيران الأجنبيان هما صاحبي السلطان الحقيقي في البلاد، فلئن كانت ثمة مسؤولية على نوبار ومن معه من الوزراء المصريين فأمام الأجانب كانت تلك المسؤولية ، وعلى ذلك فمن هذه الوجهة يصح تسمية تلك الوزارة بما سميت به ، أما أن تعتبر وزارة مسؤولة كالوزارات التي يكون للشعوب حق محاسبتهـــا وإسقاطها من مناصبها فتلك سخرية من سخريات الأجانب كانت في ذاتها من أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد

ولـكن شريفاً كان عضواً في تلك الوزارة ، أسندت إليه وزارة الحربية ، وحل محله رياض في الداخلية . ولنا أن نتساءل كيف قبل شريف أن ينضم إلى تلك الوزارة؟ والذي نستطيع أن نستخلصه من حوادث ذلك العهد وملابساته أنه فعل ذلك على الأرجح لأن الخديو كان يرى فيه يومئذ الرجل الذي يستطيع بما أوتي من شجاعة وثقافة أن يراقب أعمال نوبار ومن معه من الأجانب ، وفي هـذا من النفض من شخصه ما لم يكن يسمه السكوت عليه على أن شريفاً على رغم ثقة الخديو به وإيثاره إياه بالمحبة كان يكره استبداد الخديو بالأمر بقدر كراهته لنفوذ الأجانب ، وكان يضمر ذلك في نفسه حتى تحين الفرصة كما سيظهر من أعماله عما قريب

وسرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه أو على الأصح بينه وبين نوبار والعضوين الأجنبيين ، فلقد كان في الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الأعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض ... وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح اسماعيل ولا هم له إلا أن يتخلص من تلك الوزارة التي لم تترك لمن السلطة إلا اسمها

وسنحت له الفرصة في حادث مظاهرة الضباط ، فإن نفراً من الضباط الذين استغنى عنهم عملاً بسياسة الاقتصاد قد تجمهروا أمام وزارة المالية واعتدوا على نوبار والعضو الإنجليزي السير ريفرزولسن ، وكادوا يلحقون بهما الضرر البالغ لولا أن شخص الخديو بنفسه وفرق المتظاهرين ... وأعلن اسماعيل على أثر ذلك أنه غير مسؤول عن شيء في البلاد مادام محروماً من السلطان ومن ثم رأى نوبار أنه لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك فرفع إلى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التي اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الأوروبية

وإنا لا نستطيع أن نمر بحادث الضباط هذا دون أن نشير إليه ولو في إيجاز ، فنقول إن هذا الحادث كان أول خطوة في الحركة العسكرية التي سوف تكبر حتى تكون الجانب العسكري في الثورة العرابية ، ذلك الجانب الذي سوف يفسد على الثورة مبادئها ويميل بها عن وجهتها

قلت لنفسي ...

لا أدري لأية حكمة قضى الله على قادة العرب أن يختلفوا دائماً في الأسماء دون الأفعال ، وأن يدعوا الموضوعات وينصرفوا إلى الأشكال؟ ما هذه العصبية الجاهلية التي عجزت عن محوها الحنيفة المؤلفة ، والمدنيـة المهذبة ، والثقافة المتحدة ، والآلام المشتركة ، والخطوب التي تكفكف النفوس الأثرة ، وتطرف العيون الرغيبة ؟ !

هذه القضية المصرية لم يصبها بالضعف والبطء والتأخر إلا تكالب الزعماء على الرياسة ، وإقامهم الأهواء الحزبية في باب السياسة ، ووزنهم الأمور العامة بميزان المنفعة الخاصة ؛ فزهق الحق ، ونفق الزور ، واستخذى المنطق ، وطاش الرأي الحصيف بين غفلة الشعب وأثرة القادة !

كذلك سياسة الأحزاب في سورية والعراق ، لم تخل يوماً من هذا النفاق والشقاق . وهذه قضية فلسطين يجتمع لحلها وفود الدول العربية ، وتتفق على أمرها الأحزاب الإنجليزية ، وتتحـد في سبيلها الطوائف اليهودية ، ثم لا يختلف إلا أقطاب الرأي فيها ! وقد اشتد هذا الخلاف واحتد حتى أوشك أن يقطع أسباب الأمل ، وأن يحول بين المؤتمر وبين العمل !

حتى الأدب والثقافة ! لا بد أن يكون لهما زعامة وخلافة ، ثم يختلفون في مقر هذا السلطان ، أفي مصر يكون أم في لبنان ؟ ... فهل فرغنا من الجد يا قوم حتى نشتغل بهذه الصغائر ؟ أم عجزنا عن استبطان الأمور فوقفنا عند الظواهر ؟

ابن عبد الملك

ويكون فى النهاية سبب فشلها وتحويلها إلى كارثة تجرف البلاد إلى هوة بعيدة القرار .. ذلك الجانب الذى كان له بسيرة شريف صلة وثيقة، فلسوف نرى أنه لولا تطرف المرابيين وشططهم لسار شريف بالبلاد سيراً كان يصل بها بلا شك إلى غاية لو أنها أتيحت لها لتغير بها تاريخها واتجه وجهة غير التى سيق إليها

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية، حركة سوف تلتقى فيما بعد بالحركة العسكرية فيتألف من التيارين تلك الثورة التى تعمد كثير من المؤرخين تشويهها والتى أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل حتى تبينت آخر الأمر على حقيقتها ...

وكان لتلك الحركة الوليدة مركزان أولهما المركز الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثانيهما المركز الأهلى وهو بيت البكرى حيث كان يلتقى الأحرار من العلماء والنواب والأعيان .. وبهذين المركزين كان شريف دائم الاتصال لا يسهو ولا تفتر له همة

كان شريف دائم الصلة بالنواب إن جاز أن تسمى أعضاء المجلس على حالتهم هذه نواباً ؛ وكان يتمنى أن يتخذ منهم قوة يناوئ بها الأجانب ويحد من سلطان الخديو، ولن يتم ذلك فيما يرى إلا أن يكون الوزراء مسؤولين أمام هذا المجلس كما هو الحال فى المجالس الأوربية التى تسير على القواعد الدستورية . ولقد بذل شريف جهداً محموداً فى إنشاء هذا المجلس وظل يتعهده بنصحه ورعايته، وإنه ليأمل أن يتطور مع الزمن حتى يصبح هيئة لها مكانها فى النظام الحكومى فى مصر

وكان شريف يرقب حركة هؤلاء الأحرار من الرجال الذين كانوا يجتمعون فى بيت البكرى ، وكان لا يفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون ، وإن له ينهم لمكانة تجعله مناط آمالهم ومعقد رجائهم ، وما أشبه تلك الظروف بظروف مصر غداة الهدنة التى انتهت بها الحرب العظمى يوم كان الرجال يجتمعون خفية يفكرون فى مصير بلادهم ويتجهون بأفكارهم وإن لم يقصدوا إلى رجل بعينه يحسون أنه سيغدو بعما قريب زعيم ثورتهم

سقطت الوزارة الأوربية ولكنها ألفت من جديد برياسة الأمير توفيق ، فلقد رفض قنصلا انجلترا وفرنسا أن يرأس اسماعيل نفسه الوزارة كما طلب . ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصمم على الرفض ورأت الدولتان مبلغ حرص اسماعيل على إبعاد نوبار ، فاشترطتا أنهما تقبلان ذلك إذا أعطى العضوان الأوربيان فى الوزارة حق « الفيتو » على قرارات مجلس الوزراء ، ورضى إسماعيل بذلك فصار للعضوين الأوروبيين حق إيقاف أى قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه؛ ومعنى ذلك أنهما صارا يحكمان البلاد حكماً ديكتاتورياً لا يدع للخديو فى مصر سلطة أو ظلها !

وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة ؛ نمى إلى المجلس فيما نمى إليه من أنباء الوزارة الأوربية أنها تأمر بالمجلس وتنوى التخلص منه فصمم الأعضاء ألا يتفرقوا وأن يظلوا فى أماكنهم للنظر فى شئون البلاد فى تلك الآونة العصيبة ... ألسنا نرى فى ذلك صورة مما حدث فى فرنسا فى مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر ، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال ؟ لقد أدت الظروف إلى أن يصبح مجلس شورى النواب تلك الهيئة التى لم يكن لها حول ولا قوة — هيئة تحاسب الوزراء وتملك حق إقصائهم عن مناصبهم إذا ما تهاونوا فى حقوق البلاد

لقد كان لشريف الفضل كل الفضل فيما وصل إليه المجلس من حقوق حتى ليعد شريف بذلك مؤسس الحركة الدستورية فى مصر.

كان المجلس فى وزارة نوبار قد أرسل إلى السير ريفرزولسن وزير المالية يدعوه ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الأمور ، فسوف وماطل ولم يحضر أو يرسل إلى المجلس شيئاً مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات ؛ وضاق المجلس بما فعل وزير المالية وأصبح يفسر عمله بأنه إهانة موجهة إلى الأمة فى أشخاص نوابها

وفى وزارة الأمير توفيق استصدر وزير الداخلية رياض باشا أمراً من الخديو إلى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ؛ وذهب رياض يتلو على النواب هذا الأمر ؛ وهنا وقف النواب وقفة جديرة أن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياضاً بما عساه أن يقع من الحوادث فى البلاد تجاه سياسة الوزارة ، وجعلوا تبعة ذلك عليها .. ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الأمة فى فرنسا حين وقف فيه نواب العامة يتحدون قرار الملك أثر صيحة ميرابو المدوية التى نقلت تاريخ فرنسا من فصل إلى فصل

ولكن النواب هنا لم يكونوا فى الحقيقة يتحدون الخديو، ولقد كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الأجانب فى شؤون مصر ، ذلك التدخل الذى حرمه كل سلطة وإنما كان النواب يتحدون الوزارة الأوربية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر فى المسألتين الدستورية والمالية ، أما أولاهما فتتلخص فى أن تكون الوزارة مسؤولة أمام

المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلي في حكومة البلاد ، وأما الأخرى فؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الأجانب وأن يقرر في أمر الدين والضرائب ما تمليه عليه مصالح البلاد .

وأصر النواب على تلك المبادئ فكانت حركتهم هذه حركة قومية بأوسع معاني تلك الكلمة ؛ وكان يظاهر النواب أحرار البلاد من العلماء والأعيان والتجار، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم في بيت البكري. وأخيراً اتفقت كلمة الجميع على أن يتوجهوا إلى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ، وفيها يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التي كانت ترمي إلى إعلان إفلاس مصر ، ويقررون أن إيرادات مصر تفي بدفع ديونها ؛ ويطلبون إلى الخديو تقرير مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الأوروبية التي ضاقت بسياستها البلاد ...

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت إشراف شريف ؛ فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته إلى هذه البلاد كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها في مجرى الحوادث أثراً ؛ ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ومثلهم من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الأزهر والبطريرك والحاخام ، كما وقع عليها عدد كبير من الأعيان والتجار والموظفين والضباط ، ورفعت بعد ذلك إلى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه إلى النفوذ الأجنبي ضربة قوية ، فالبلاد من ورائه تؤيده وتشد أزره، ولذلك لم يتردد في الموافقة على اللائحة، وسرعان ما هزت فعلته البلاد هزة قوية، هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنية والأمل في مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتنعم فيه بالراحة والرخاء

واستقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الأبصار إلى شريف وانعقدت عليه القلوب والأهواء، فالبث أن تضاعف سرور البلاد بأن أسند إليه رياسة الوزارة الوطنية، وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الأمة فكان بذلك في مصر صاحب الرياستين

(البقية في العدد القادم)

محمود الخفيف

- انه افضل كريم لحلاقة الوجه . لأنه يرغي بمعدل ٣٠٠ مثة
- انه لا ينشف على الوجه بل يجعل الوجه طريا ناعما للحلاقة
- ان فقاقيعه تجعل الشعر ينتصب فتمر عليه الموسى وتحلقه بسهولة
- انه هو الكريم الوحيد المركب من زيت الزيتون وزيت النخيل . لذلك يشعر الانسان بلذة بعد انتهاء الحلاقة